دلائل الإعجاز

هذا فصل في " الذي " خصوصا .

أعلم أن " لك في " الذي " علما كثيرا وأسرارا جمّة وخفايا إذا بحثت عنها
وتصورتها اطّلاعت على فوائد تؤنس النفس وتُخلج الصّدر بما يُفضي بك
إليه من اليقين ويؤدّيه إليك من حُسن التّبيين . والوجه في ذلك أن تتأمل
عبارات لهم فيه : لِمَ وُضِعَ ولأَيِّ غرضٍ اجتلببَ وأشياء وصفوه بها .
فمن ذلك قولهم : إن " الذي " اجتلببَ ليكونَ وصلةً إلى وصفِ المعارفِ بالجُمَلِ كما
اجتلببَ " ذو " ليتوصّلَ به إلى الوصفِ بأسماءِ الأجناسِ يعنون بذلك أنك تقولُ : مررتُ
بزيدِ الذي أبوه منطلقُ وبالرجلِ الذي كان عندنا أمس . فتجدُك قد توصّلتَ بالذي
إلى أن يبينَ أبنتَ زيدا من غيره . بالجملة التي هي قولك : " أبوه منطلقُ " .
ولولا " الذي " لم تصلَ إلى ذلك كما أنك تقولُ : مررتُ برجلٍ ذي مالٍ : فُيتوصّلُ
بذي إلى أن يبينَ الرجلُ من غيره . بالمال . ولولا " ذو " لم يتأتَّ لك ذلك إذ لا
تستطيعُ أن تقولَ : برجلٍ مالٍ . فهذه جملةٌ مفهومةٌ إلا أن تحتها خبايا تحتاجُ إلى
الكشفِ عنها .

فمن ذلك أن تعرّفَ لِمَ من أين امتنعَ أن توصفَ المعرفةُ بالجملة ولمَ لِمَ يكن
حالتها في ذلك حالَ النكرة التي تصفُها بها في قولك : مررتُ برجلٍ أبوه منطلقُ
ورأيتُ إنساناً تُقادُ الجنائبُ بينَ يديه . وقالوا : إنَّ السببَ في امتناعِ ذلك أن
الجملةَ نكراتٌ كلاهما بدلالةُ أنها تُستفادُ وإنما يستفادُ المجهولُ دونَ المعلومِ .
قالوا : فلمّا كانت كذلك كانتَ وفاقاً للنكرة . فجازَ وصفُها بها ولم يَجُزْ أن
توصفَ بها المعرفةُ إذ لم تكُنْ وفاقاً لها